٣ الشعراء الصعـــــاليك

الصعلوك في اللغة الفقير الذي لايملك من المال ما يعينه على أعباء الحياة ولم تقف هذه اللفظة في الجاهلية عند دلالتها اللغوية الخاصة ، فقد أخذت تدل على من يتجردون للغارات وقطع الطرق ، ويمكن أن نميز فيهم ثلاث مجموعات :

مجموعة من الخلعاء الشذاذ الذين خلعتهم قبائلهم لكثرة جرائرهم مثل حاجز الأزدي وقيس بن الحدادية وأبي الطمحان القبني ، ومجموعة من أبناء الحبشيات السود ،حمن نبذهم آباؤهم ولم يلحقوهم بهم لعار ولادتهم مثل السليل بن السلكة وتأبط شرا والشنفرى ، وكانوا يشركون أمهاتهم في سوادهم فسموا وأضرابهم باسم أغربة العرب ، ومجموعة ثالثة لم تكن من الخلعاء ولا أبناء الإماء الحبشيات ، غير أنها احترفت الصعلكة احترافا ، وهم من الفقراء المعدمين المتمردين على الواقع الاجتماعي والاقتصادي الجاهلي يقودهم الشاعر عروة بن الورد العبسي ، ومثلما تتكون هذة المجموعة من أفراد فإنها تتكون أيضا من قبائل مثل قبيلتي هذيل وفهم اللتين كانتا تنزلان بالقرب من مكة والطائف على التوالي .

ويمتاز الصعاليك بقوة النفس والشجاعة والصبر عند البأس وشدة المراس والمضاء وسرعة العدو ،حتى ليسمون بالعدائيين ، وحتى لتضرب الأمثال بهم في شدة العدو، فيقال:"أعدى من السليل" و "أعدى من الشنفرى" كما يحسنون ركوب الخيل والإغارة عليها ـ وكانوا ينتشرون في جبال السراة التي تحيط بمكة ،اذ أنهم يرصدون طرق القوافل التجارية وقوافل الحجاج القاصدة اليها ـ كما كانوا ينتشرون بالقرب من الطائف والمدينة وأطراف اليمن الشمالية .

بعض موضوعات شعرهم :

١. **الفقـــــــــر** : حين نرجع الى أخبار الصعاليك وأشعارهم نجدها حافلة بالحديث عن الفقر ، فكل الصعاليك فقراء ، لا نستثني منهم أحدا حتى عروة بن الورد سيد الصعاليك الذي كانوا يلجؤون اليه كلما قست عليهم الحياة ، ليجدوا عنده مأوى لهم حتى يستغنوا ، فالرواة يذكرون أنه كان صعلوكا فقيرا مثلهم ، وتكثر في شعرة أحاديث فقره ، وما يعانيه من حرمان ، وما يتكبده في سبيل الغنى من جهد ومشقة ، وما يشعر به من ثقل التبعة التي يتحملها إزاء أهله ، وإزاء أصحابه الصعاليك أيضا ، يقول عروة :

ذريني للغنى أسعـــى فإني رأيت الــناس شعرهم الفقير

ويقول أيضا :

فسر في بلاد الله والتمس الغنى تعش ذا يسار أو تموت فتعذرا

ويقول كذلك :

ومن يل مثلي ذا عيال ومقترا من المال يطرح نفسه كلّ مطرح

وهذا الفقر الــذي استبد بحياة الصعاليك حمل لهم في ركابه الجوع ، نتيجة طبيعية له ، ولعل الجوع أقسى ما يحمله الفقر الى جسد الفقير ، فقد تحدثوا عن أثره في أجسامهم ، من ذلك حديث السليل بن السلكة عن فعل الجوع به في أشهر الصيف المحرقة وما كان يصيبه من إغماء حتى لقد كان يشرف على الموت والهلاك :

ومــا نلتها حتى تصعلكت حقبة وكدت لأسباب المنية أعـرف

وحتى رأيت الجوع بالصيف ضرني أذا قمت تغشاني ظلال فأسدف

والمتأمل في أخبار الصعاليك وأشعارهم يلفت نظره شعور حاد بالفقر، وإحساس مرير بوقعه على نفوسهم ، وشكوى صارخة من هوان منزلهم الاجتماعية وعدم تقدير المجتمع لهم وعجزهم عن الأخذ بنصيبهم من الحياة كما يأخذ سائر أفراد مجتمعهم ، أو الوقوف معهم على قدم المساواة في معترك الحياة ، لا لأنهم هم أنفسهم عاجزون ، وإنما لان مجتمعهم ظلمهم ، وحرمهم من تلك العدالة الاجتماعية التي يطمح اليها كل فرد في مجتمعه ، وجردهم من كل الوسائل المشروعة التي يواجهون بها الحياة كما يواجهها غيرهم ممن توافرت لهم هذه الوسائل .

وينظر هؤلاء الفقراء الجياع ، المحتقرون من مجتمعهم ، المنبوذون من إخوانهم في الإنسانية الى الحياة ليشقوا لهم طريقا في زحمتها وقد جردوا من كل وسائلها المشروعة فلا يجدون أمامهم إلا أمرين : أما إن يقبلوا

هذه الحياة الذليلة المهينة التي يحيونها على هامش المجتمع في أطرافة البعيدة ، خلف أدبار البيوت ، يخدمون الأغنياء أو ينتظرون فضل ثرائهم أو يستجدونهم في ذلة واستكانة ، وإما أن يشقوا طريقهم بالقوة نحو حياة كريمة أبية ، يفرضون فيها أنفسهم على مجتمعهم ، وينتزعون لقمة العيش من أيدي من حرمهم منها ، دون أن يبالوا في سبيل غايتهم أكانت وسائلهم مشروعة أم غير مشروعة ، فالحق للقوة ، والغاية تبرر الوسيلة .

وينظر هؤلاء الصعاليك الى المجتمع ، فاذا هو مجتمع ظالم ، واذا توزيع الثروة فيه توزيع جائر مضطرب . إنه مجتمع لا يؤمن الا بالمال ، ولكنه مع ذلك لا يحسن توزيع المال بين أفراده ، فليس من العدل أن يكون لأحد أفراده عدد ضخم من الإبل في حين لا يملك الآخر غير حبل يجره لا بعير فيه ، وما هذه الإبل التي يملكها هذا الأحد سوى إبل الله خلقها للناس جميعا ، فهي ليست حقا له وحده دون غيرة من خلق الله في هذه الأرض .

ووقف هؤلاء الصعاليك أمام هذه المشكلة الخطيرة ، ولم يجدوا أمامهم ـ بسبب البيئة والمجتمع والمزاج الشخصي ، من وسيلة يرضونها لأنفسهم إلا الاعتماد على القوة يغتصبون عن طريقها ما آمنوا به بأنه حقهم المسلوب ، فمضوا خلف أولئك الأغنياء المترفين ، وبخاصة البخلاء منهم ، وتربصّوا بالقوافل التجارية التي تسيل بها شعاب الجزيرة العربية ، ينهبنون ويسلبون ولا يتورعون عن قتل من يعترض طريقهم ، لأن المسألة أخذت في أذهانهم وضعا ثنائيا لا ثالثا له : أما حياة كريمة ، وأما ميتة كريمة ، أما أنصاف الحلول فشيء لا يؤمنون به .

لقد آمن هؤلاء الصعاليك بأن الحق للقوة ، وأن الضعيف ضائع حقه في هذه الحياة ، ورأوا أمامهم أولئك الصعاليك الفقراء المستضعفين وما يلاقونه من ذل وضيم وهوان ، فرثوا لهم وآلوا على أنفسهم أن يثأروا لهم ممن استضعفوهم ، وأن يفرضوا أنفسهم فرضا على ذلك المجتمع الذي أذل أخوانهم الضعفاء ، ومن النماذج الشعرية التي توضع فلسفة الصعاليك في الحياة وفلسفتهم في مشكلة الفقر ، وموقفهم من واقعهم الاجتماعي والاقتصادي ، قول عروة بن الورد:

ذريني للغنى أسعى فإنـــي ... رأيت الناس شرهم الفقير
وأهونهم وأحقـرهم لديـــه ... وإن أمسى له كرم وخير
ويقصى في الندي وتزدريه ... حليلته وينهره الصغـــير
وتلقى ذا الغنى ولـه جـلال ... يكاد فؤاد لاقيه يطـــــير
قليل ذنبـــه والذنب جـــــم ... ولكـن الغنى رب غفـور

٢.أحاديث التشرد : تحفل أخبار الصعاليك وأشعارهم بأحاديث التشرد في أنحاء الصحراء والموحشة ووديانها الرهيبة ، حيث يحيا الوحش بعيدا عن البشر، وحيث يكون الموت في كل ركن من أركانها ... ولعل أقوى تصوير لهذا التشرد قول "الشنفرى" في لاميته المعروفة "لامية العرب" إذ يقـــــــول :

ولي دونكم أهلـون سيد عملّـس ... وأرقط زهلول وعرفاء جيـــأل
هم الأهل لا مستودع السر ذائـع ... لديهم ولا الجاني بما جر يخـذل

٣.وصف الأسلحة : من الطبيعي أن يتحدث الشعراء الصعاليك عن أسلحتهم فهي القوة الثالثة التي يعتمدون عليها في مغامراتهم إلى جانب قوة قلوبهم وقوة أرجلهم ..تلك القوة الثلاث التي تقوم عليها حياة الصعلوك ..والأسلحة التي يصفها الصعاليك منها أسلحة الهجوم "السيف والرمح والقوس والسهام "وأسلحة الدفاع "الدرع والترس"...ويلح الشعراء الصعاليك في الحديث عن هذه الأسلحة الحاحا شديدا ولا غرابة في ذلك ،إذ أنها تكاد تكون كل ما يملكون في حياتهم ألفقيرة ، يقول عمرو بن براقة في سيفه :

وكيف ينام الليل من جـــــل مـاله ... حسام كلون الملح أبيض صـارم
عضوض اذا عض الكريهة لم يدع ... له طعم طوع اليمين فـــــلازم